علم الاجتماع والتكوين المنهجي والمعرفي
لطه حسين

دراسة استطلاعية

الدكتور عبدالباسط عبدالمعطي
أستاذ ورئيس قسم الاجتماع
جامعة قطر

أولاً : مقدمة :

قليلون هم الرجال الذين ظلوا بعد رحيلهم مثار نقاش وجدل. بسب أعمالهم ومواقفهم. ومصدر إلهام بدراسات وبحوث توحي بها الموضوعات التي درسوها والقضايا التي طرحوها. إن «طه حسين» من هذا النمط من الرجال. فهو متعدد الاهتمامات والمساهمات. فهو في الأدب من المبدعين، وبغض النظر عن تقويم إبداعاته. . وهو ناقد وباحث سعى الى التجديد في المنهج وفي موضوعات البحث. وبصرف النظر عن حدود إدراك هذا التجديد وتقويمه. يضاف إلى ما سبق انه ممن جمعوا بين القلم والعمل العام. ولهذا فلا غرابة ان تستدعيه أمته، كما تستدعي من هم على شاكلته، عندما تكون عند مفترق عليها فيها الاختيار. تستدعيهم جميعا للحوار واستخلاص الدروس او للتقويم بقصد التصحيح والتجاوز.

يضاف الى ما سبق والذي يشاركني فيه كثيرون. انه بناء على اشتغالي بعلم الاجتماع وانشغالي بأدواره المجتمعية، وجدت أن طه حسين درس هذا العلم وبحث فيه. درس فكر أبرز مؤسسي المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع. وبحث

مساهمات «ابن خلدون» في تأسيس هـذا العلم وفهم المجتمع الانساني. لقد ظل هذا الامـر يلح علي لبحث دور علم الاجتماع في التكوين المنهجي والمعـرفي «لطه حسين» ، ولا أظن ان احدا اهتم بهذا الامر على نحو مبـاشر. باستثناء إشارات متناثرة في ثنايا اعمال نقدية لمساهماته الادبية.

لقد أفضى هذا الى بلورة الهدف الرئيسي للدراسة الراهنة والذي تمثل في محاولة استطلاع ملامح ومواضع تأثير علم الاجتماع في مساهماته الفكرية والادبية. وما اذا كان هذا الاستطلاع يمكننا من تقدير هذا التأثير ولو على نحو تقريبي.

وتـوطئة للسير نحـو هـدف الدراسـة ، كـان من الضروري تحديد عـدد من المسلمات التي اخذنـاها موجهات لصـوغ منهج الدراسة ومضمـونها. وكان من بين اهم هذه المسلمات ما يلي :

١ — أنه ليس امـر واقعي ان نرجع التكوين الفكري والمعـرفي لأي إنسان الى مصدر وحيـد او خبرة او ممارسة واحدة بعينهـا. فمعرفة الانسان حصـاد تفاعل وتركيب لمتغيرات وخبرات ومـواقف يصعب حصرها لتعددها وتبـاينها، بتعدد مراحل عمره وتباين خبراته وعلاقاته وتعدد العمليات والادوار الاجتماعية التي دخل فيها. واذا كـان هذا هـو حال الانسـان العادي، فما بـالنا بمفكـر ومبدع، تستدعي حالته ومساهماته النوعية قـائمة طويلة من المصادر والعمليات، منها ما هو تعليمي ومنها ما هـو علمي. ومنها ما هو ايديولـوجي وسياسي. فضلا عن علاقته بتاريخ الفكر ومدارسه وطرائق استقباله لها جميعا، ومواقفه منها.

٢ — ان تأثير اي من مصادر التكوين المنهجي والمعـرفي لأي مفكر او مبدع، لايظهر امامنا من خلال تجسدات مباشرة، او عبر رؤية ميكانيكية، فأغلب الظن ان هذا التأثير، يأتي عبر تداخل وتفاعل مرا في حالة المبدعين عبر مصفاة الانتقاء والاستيعـاب، وعبر مـزيج من التأليف والتركيب، وأحيـانـاً عبر ايحاء بأفكـار وقضايـا لا تكون في أي من المصادر المؤرة فيـه، بالكيفية التي انتجهـا بها المفكر والمبـدع. ان ثمـة بعـدا ذاتيـا، وإن تأثر بمصـادر فكـريـة ومجتمعيـة، تظل لـه

خصوصيته وروحه ومرآته الخاصة.

٣ — انه رغم ما يكتنف محاولات دراسة مصادر التأثير في فكر الرجال، من مخاطر ومصاعب منهجية، إلا ان هذا يجب الا يفتر عزيمتنا العلمية، خاصة اذا كنا من المتأكدين من اجر واحد على الاقل. ولهذا اخترنا في ضوء فهمنا لمتطلبات العمل العلمي واستيعابنا لقيمه، أن تكون دراستنا من النوع الاستطلاعي، الذي يسعى إلى طرح تساؤلات وربما صياغة فرضيات في ضوء نتائج لاندعي انها يقينية او نهائية، وباعتبار ان هذا الاستطلاع مرحلة ضرورية قد تدفع نحو دراسات اخرى تسهم في الاقتراب من الدقة والتثبت العلميين.

٤ — اننا ولتحددنا بأهداف بعينها لسنا بصدد تقويم ما توصل اليه «طه حسين» من نتائج او ما اتخذه من مواقف، سواء بالقبول أو بالرفض. فهذا أمر بحاجة الى دراسات اخرى. ان هدفنا كما أشرنا هو تحسس التشابه واستطلاع التأثر بمن تفاعل معهم من رواد علم الاجتماع.

٥ — ان المبدع غالبا ما يتجاوز تقليد أو محاكاة من يقرأ لهم ويتفاعل معهم ومع أعمالهم. ولهذا نجده يتجاوز تفصيلات كثيرة. ليركز على مناهجهم وينسج الحوار مع افكارهم واختياراتهم المعرفية والايديولوجية والاجتماعية. لقد قادنا هذا الى التركيز على خصائص منهج «طه حسين» في البحث والنقد والابداع، سواء عند مستوى الاسس المنهجية المعلنة. او عند ممارسة المنهج من خلال نماذج من الاعمال والابداعات.

٦ — لقد حاولنا ان نجمع عند تحليلنا لاعمال «طه حسين» بين مستويين: أولهما كلي عابر لاكبر عدد ممكن من الاعمال، لاستطلاع التطورات المنهجية والمعرفية عنده. وثانيهما جزئي او إن شئنا الدقة محدد بأعمال بعينها بوصفها حالات تساعد في توضيح بعض مواقع التأثر او التطابق مع افكار من تفاعل مع انتاجهم في علم الاجتماع.

ثانياً: منهج «طه حسين»: الأسس والمنطلقات:

تدلنا فلسفة العلوم وعلم الاجتاع المعرفي Sociology of Knowledge وعلم المناهج البحثية Methodology بتطوراتها، وتفاعلاتها المعاصرة، على ان الفهم الارحب للمنهج هو الذي يراه حصاد تركيب بين المنطلقات الفلسفية والنظرية والاجراءات والاساليب البحثية المستخدمة. وانه يشمل كل خطوات البحث بدءا من التفكير في موضوعه وحتى اعلان نتائجه وتفسيرها. (١)

في ضوء هذا الفهم سيكون سعينا نحو استخلاص الاسس المنهجية التي اعتمدها «طه حسين» في ممارساته البحثية والفكرية والابداعية، قصد استطلاع ما هنالك من علاقات مباشرة او غير مباشرة بما قرأ ودرس وبحث في اطار علم الاجتماع. خاصة ذلك الاطار الذي كان متاحا له ان يتفاعل معه. ونخص هنا اعمال رواد المدرسة الفرنسية واعمال «عبدالرحمن بن خلدون».

والذي يهمنا الاشارة اليه هنا هو انه اذا كان الوعي المنهجي والمعرفي للمفكر او الباحث لايمكن ارجاعه الى مصدر وحيد لأن ثمة مصادر كثيرة مؤثرة يتفاوت دورها من حيث الشدة والمدى. فيهم بالقدر نفسه تأكيد ان المنهج عند المفكر او الباحث لايولد لديه مكتملا، لانه يمر بتطورات ويخضع لتعديلات وتبدلات كلية او جزئية. نتيجة لدور الممارسة في إثراء الوعي المنهجي لدى الباحث. ولذلك قالوا بأن هذه الممارسة ان لم تثر وعي الباحث وتبلوره. فمن المؤكد انها ممارسة كانت ناقصة ومبتورة او على الاقل مشوهة.

وتفيدنا الدراسات والبحوث التي انجزت حول اعمال «طه حسين»(٢) وايضا متابعتنا لعدد مهم من اعماله. بأن منهجه مر على الاقل بمرحلة التأسيس التي اعتمدت على النقد ربما اكثر من غيره، ثم مرحلة البلورة والتعديل. ليكون التشكل الناضج للمنهج متجسدا من خلال الممارسات المطردة.

والذي يعلمنا به هذا التطور - بين إعلامات اخرى - انه رغم التبديل والتعديل الذي اجراءه على منهجه، فثمة ثوابت نسبية شكلت معالم كانت حاضرة في مضمون هذا المنهج. كما انه ثمة متغيرات او اسس تبدلت او تفاوت

حضورها في اعماله، بين مرحلة واخرى، وربما بين عمل وآخر، وممارسة فكرية او بحثية واخرى. إن تمييز الثوابت المنهجية ودراسة علاقتها بعلم الاجتماع، يجعلنا نفترض: أنه كلما كانت العلاقة واضحة بين هذه الثوابت وأسس هذا العلم، كنا في موقف يسمح لنا بتعيين التأثير النسبي لهذا العلم، كمصدر من مصادر التكوين المنهجي والمعرفي «لطه حسين».

إنه بوسع المتابع لمنهجية دراسة الفكر الانساني ومساهمات رواده، ملاحظة تأكيدها على ابعاد كاشفة لخصائص هذا الفكر ومواقف اولئك الرواد وهويتهم. هذه الابعاد هي(٣): تحديد دور العقل الانساني في الإدراك، ورؤية التاريخ وتفسيره. والموقف من الواقع الاجتماعي، بمستوياته الاساسية والفرعية وعلاقاته وعملياته، خاصة الموقف من المسألتين الاجتماعية والسياسية. انها الابعاد التي يمكن عند استطلاعها في حالة «طه حسين» تحديد أسس منهجه على مستوى التنظير ومستوى التطبيق، خاصة المنطلقات الفلسفية والمعرفية لمنهجه. ولإختياراته السياسية والاجتماعية. ومع ان الفصل بين هذه الابعاد محاط بالصعاب والمخاطر المنهجية، لأنها متداخلة متفاعلة في الممارسة الواقعية. فإن محاولة إجراء فصل ولو تعسفي بينها أمر تبرره أهداف التحليل العلمي.

ا — المنطلقات الفلسفية والمعرفية:

نقصد بها المسلمات والمقولات والمبادىء التي أسهمت في تأسيس الإطار العام لرؤيته التي اطل بها على العوالم التي أحاطت به، والتي جسدتها موضوعات ممارساته البحثية والنقدية والفكرية، والقضايا التي طرحها. والاهداف التي سعى إلى تحقيقها.

أ — محددات دور العقل وشروط توظيفه في الإدراك:

من الملاحظ ان كثيرا ممن اهتموا بدراسة منهج «طه حسين» اتفقوا تقريبا على تأثره «بالمنهج الديكارتي»، خاصة القاعدة الاولى من كتاب «ديكارت» مقال «أو خطاب» في المنهج Discours de la Methode . وهي القاعدة التي ترى بوجوب

«أن لا أتلقى على الاطلاق شيئا على انه حق ما لم أتبين بالبداهة انه كذلك . اي ان اعنى بتجنب التعجل والتشبث بالاحكام السابقة وان لا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل لعقلي في وضوح وتميز لايكون لدي معهما اي مجال لوضعه موضع الشك»(٤) . ويرجع إتفاقهم الى إقتباسات وكتابات «طه حسين» الصريحة وسعيه لإصطناع المنهج الديكارتي في الأدب . لقد ذكر هذا في اكثر من عمل من أعماله خاصة عمله «في الأدب الجاهلي»(٥) أما القليل من الباحثين فهو الذي إهتم بالاشارة الى التقاء الرؤية المنهجية الديكارتية عند الممارسات البحثية والنقدية والابداعية لدى «طه حسين» برؤى أخرى لفلاسفة وعلماء اجتماع، نخص منهم من بين علماء الاجتماع «ابن خلدون» و «اوجيست كونت» و «ايميل دوركايم» . على ان معظم هذا القليل أتى حديثه بشأن هذا الإلتقاء، عام بلا تحديد، إلا فيما ندر، وبالاستناد غالبا الى إشارات «طه حسين» لأسماء بعض من هؤلاء الفلاسفة والعلماء، وبعض أعمالهم، في متون أعماله وحواشيها . وقليل من القليل هذا هو الذي عقد بعض المقارنات بين «المنهج الديكارتي» ومنهج «طه حسين»، مستشهدا ببعض النصوص والأفكار، ليبين تطوير «طه حسين» لمنهج «ديكارت»، واعتماده على التركيب والتأليف من بين رؤى منهجية اخرى غير قليلة، استنادا إلى ان ما قرب «طه حسين» من «ديكارت» هو نفسه الذي جعله يقترب من آخرين كان جل إهتمامهم بالمنهج . (٦)

لقد حاولنا ـ دون ادعاء للكمال ـ استخلاص القواعد المنهجية التي سار عليها «طه حسين» من بين الدراسات والبحوث التي عنيت بهذا المنهج اضافة الى قراءتنا لعدد من أعماله(٧) ويمكن ايجاز هذه القواعد المنهجية فيما يلي :

الاولى : وترى بضرورة تحرر الباحث او المدرك بصفة عامة، من كل ما من شأنه ان يعوق انجازه للموضوعية . ويشتمل هذا على التحرر من الافكار والاحكام والمشاعر المسبقة التي تحول دون فهم الموضوع المدرك على نحو يكشف عن طبيعته النوعية وخصائصه المتميزة .

ان هذه القاعدة المنهجية التي يرى البعض أنه تأثر فيها «بديكارت» بوسع المتتبع لأعمال «ايميل دوركايم» احد رواد علم الاجتماع الفرنسيين والذي درس «طه حسين» على يديه وقرأ أعماله وكان احد المشرفين على أطروحته حول «ابن خلدون». بوسعه ملاحظة تكرار هذ القاعدة عند «دوركايم» خاصة في عمله الموسوم قواعد المنهج في علم الاجتماع Les Regles, de la methode Sociologique ١٨٩٥. والذي وضح فيه أن على الباحث التحرر من الافكار والمشاعر والنزعات القبلية Apriorism لأمرين: أولهما لانها تعوق الفهم الموضوعي لما نبحث بتأثيرها في احكامنا عليه. وثانيهما لانها حافلة بما هو عام ودارج، مما يبعد البحث عما هو علمي(٨).

قد يرى البعض ان ليس «لدور كايم» دور مؤثر في «طه حسين» بشأن هذه القاعدة لأن كليهما قرأ «ديكارت» ودرسه. واذا كان من تشابه في التعديلات والصياغات فربما ترجع الى «التخاطر». ولأن أخلاقيات العمل العلمي لاتجعلنا نصادر على مثل هذا الرأي، . فإنها من ناحية اخرى تلح علينا في مناقشته. ان الحد الادنى للتأثير «الدور كايمي» بشأن هذه القاعدة يأتي من انه قدم «لطه حسين» مبررات تدعم استناده اليها. ويأتي الحد الاوسط للتأثير من ان «دوركايم» قدم أمثلة تفصيلية حول المؤثرات الاجتماعية والثقافية المسبقة التي من شأنها التأثير السلبي في ادراك الموضوع. اما الحد الاعلى للتأثير فيكشف عن نفسه من إستشهاد «طه حسين« بأفكار «دور كايم» في عدد من اعماله، خاصة عمله حول «ابن خلدون» والذي نفترض ان نقده السلبي والايجابي له تم بعيون «دوركايمية» وحتى المقارنات التي عقدها «طه حسين» بين «ابن خلدون» و «مونتسكيو» يمكن افتراض انه تأثر فيها بعمل سابق «لدور كايم» حول «مونتسكيو وروسو»(٩) لقد بين «طه حسين» في أطروحته حول «ابن خلدون» ان منهج ابن خلدون بعيد عن منهج علم الاجتماع، لانه لم يتحرر من عادات عصره تحررا كافيا ليكون علميا حقيقة وليجعل الى درجة كافية من الحادث «الواقعة» الاجتماعي موضوعاً. (١٠)

الثانية : طالب بضرورة تحرير الموضوع المدروس من كل صوره الفردية والطارئة والثانوية، وتداخله مع غيره من ظواهر ليست من طبيعته، ويتسنى هذا للمدرك ـ الباحث ـ عندما يرتفع بموضوع إدراكه إلى مستوى الظاهرة الاجتماعية، وتطبيق خصائص هذه الظاهرة عليه عند اختياره. انها الخصائص التي ترى بعمومية الظاهرة وتلقائيتها ووجدوها على نحو خاص تلقائي.

لقد كان قصده من وراء هذا ان تتم قاعدة تحرير الموضوع، قاعدة تحرير العقل او المدرك. وان تفاعلها يسهم في إتاحة فرصة اكبر لتحقيق الموضوعية. لقد حاول طه حسين ان يطبق هذا في عمله «في الشعر الجاهلي»(١١) كما حرص عليه في الكثير من اعماله النقدية والابداعية، على نحو ما سوف يتضح فيما يلي من معالجات وتحليلات. فكم من مرة أكد أن شخصيات أعماله القصصية والروائية لم يعتمد في اختياره لها على انها حالات فردية او ثانوية او طارئة. وانما لانها رموز لمجموعات وظواهر. ولعل في دراسته لـ «أبي العلاء» و «أبي نواس» و «الأخطل» وايضا كما في «المعذبون في الارض» شواهد على هذا.

ومع القبول باحتمال وجود تأثير لكثيرين في صياغته لتلك القاعدة، إلا أننا نلحظ «لايميل دوركايم» تواجدا اكبر عبر عدد من اعماله. «فدور كايم» كأحد مؤسسي علم الاجتماع على هدى الفلسفة والعلم الوضعيين. كان من المطالبين بتحرير موضوع البحث وان تتوافر فيه شروط الظاهرة الاجتماعية وخصائصها في ضوء ما وضعه من خصائص، لتمثل نموذجا مثالياً Ideal Type تقاس عليه خصائص الظاهرة المختارة للبحث. لقد ركز «دور كايم» هذه الخصائص، في العمومية والتلقائية والالزام في الظاهرة وايضا الطبيعة النوعية او الخاصة لها Sui-Generis والتي تميزها عن الظواهر الطبيعية والنفسية. ان هذا المصطلح الفرنسي هو نفسه ذلك المصطلح الذي كرره «طه حسين» في كثير من اعماله والذي حرص «محمد عبدالله عنان» ان يبقى عليه بلغته الفرنسية عندما ترجم الى العربية أطروحة «طه حسين» حول «ابن خلدون»(١٢).

الثالثة : أجمع شراح «طه حسين» تقريبا على انه كان على قناعة شبه تامة بنمط من أنماط الحتمية الاجتماعية . فسر في ضوئها حركة الافراد والفكر والادب(١٣) . فقد كان يرد الظواهر الادبية اليها . فشعر «أبي نواس» نتاج عصره ومرحلته . والادب ظاهرة اجتماعية مشروطة بشروط اجتماعية . ويشتمل التاريخ الانساني نفسه على ظواهر محكومة بعلل اجتماعية وكونية . لقد كتب في رسالته حول «ابن خلدون» ان الحياة الاجتماعية تأخذ أشكالها المختلفة ، وتنزل منازلها المتباينة ، بتأثير العلل والاسباب التي لايملكها الانسان ولايستطيع لها دفعاً ولا اكتسابا(١٤) . كما كان من بين دواعي تقويمه الايجابي لابن خلدون اثباته ان التاريخ محكوم بقوانين ومن ثم قال «ولنا الحق في انه سبق مونتسكيو في هذه الوجهة»(١٥) . كما حرص في عمله «قادة الفكر» على إبراز حركة التطور في الفكر في علاقتها بالتطور الاجتماعي . إن شخصية الشاعر او الفيلسوف او المفكر كما ذهب ، ثمرة لشروط بيئتها الاجتماعية الشاملة على ابعاد ثقافية وإقتصادية وسياسية .

حقيقة ان فكرة «الحتمية» في العلم الاجتماعي كانت سائدة لدى معظم المفكرين الذين سمع بهم او قرأ لهم او درس على ايديهم . وكانت شاملة على انواع عدة للحتمية ، لكنه من بين حتمية مادية لدى «ماركس» وبيولجية لدى «دارون» و «هربرت سبنسر» وثقافية لدى «ماكس فيبر» ونفسية او سيكولوجية لدى «جبرييل تارد» ، تشيع من بين كل هذا للحتمية الاجتماعية التي يعد «دوركايم» من بين اكبر المقتنعين بها ، والعاملين على تأكيدها(١٦) . ولعل من بين ما يدلل على تأثره «بدور كايم» في هذا المنحى ، ان «طه حسين» عند تقويمه لاعمال ابن خلدون استخدم الامثلة والافكار نفسها ، التي نقد بها «دور كايم» «جبرييل تارد» ليفند الحتمية النفسية وليثبت أهمية وجدوى الحتمية الاجتماعية(١٧) .

الرابعة : وتعد مكملة لسابقتها ومترتبة عليها . لقد اكد «طه حسين» ضرورة دراسة الموضوع ـ الظاهرة متجردا ومتحررا من تجسداته الفردية . وايضا دراسة

التصورات الاجتماعية متحررة من التصورات الفردية، ذلك لأن ما هو مجتمعي وما هو اجتماعي ليس مجرد جمع حسابي لمكوناته الفردية، لانه حصاد تفاعل هذه المكونات على نحو تفاعل العنصرين الكيميائيين للماء. ان تشبيه التفاعل الاجتماعي بتفاعل الماء كان احد تشبيهات «دور كايم» التي تأثر بشأنها، حتى وان كان «دور كايم» قد نقلها عن آخرين. لقد كانت التفرقة بين ما هو فردي وما هو اجتماعي تفرقة مركزية في علم الاجتماع الدور كايمي كما اكد على ذلك كثير من شراحه والذين من بينهم «ريمون آرون»(١٨). كما انها التفرقة التي كانت من بين الأسس المنهجية التي قوم بها «طه حسين» أعمال «ابن خلدون» تقويما سلبيا عندما قال «والظاهر انه لم تكن لابن خلدون فكرة واضحة عن المجتمع تتميز بوجه خاص عن فكرته عن الفرد. فمع انه كان يقرر ان المجتمع السياسي ليس متحدد الشكل في كل زمان ومكان، فانه لم يلتفت الى ان ذلك المجتمع يتميز تميزا تاما مخالفا لتميز الفرد. وان له وجودا ثابتا وحقيقة غير الحقيقة الفردية.. حتى ان «ابن خلدون» كثيرا ما يشبه الدولة بالفرد فالدولة كالإنسان تولد وتنمو وتموت(١٩).

ربما يرى البعض ان تأثر «طه حسين» بهذه القاعدة فرضته طبيعة الموضوع الذي كان يدرسه. فقد كان يدرس «ابن خلدون» اول مؤسس لعلم الاجتماع، ومن ثم كان على «طه حسين» ان يقوم اعماله من داخل هذا التخصص، ومن ثم كان تأثره «بدور كايم» احد مشرفيه على هذا العمل(٢٠). ان مثل هذا الرأي كان يمكن ان يكون صحيحا، وكان يمكن لآخرين ولنا القول معه ان هذا التأثير كان محددا ومدخليا، لو ان «طه حسين» قاطع هذه الفكرة وتلك التفرقة بعد ذلك. لكن الحاصل انه كثيرا ما كان يدلل ويؤكد بعد ذلك على ان اختياره لموضوعات ابداعاته في القصة والرواية وفي دراسة الفكر والادب، لم يأتي من أنها تمثل تجسدات لظاهرات فردية وانما لأنها تمثل تجسدات لتصورات اجتماعية سائدة في حقبة او في عصر من العصور ولعل في «شجرة البؤس» و «المعذبون في الارض» وآرائه في أبي نواس والاخطل شواهد على استمرار هذه الفكرة في اعماله

التالية لدراسة لـ «ابن خلدون».

الخامسة : وتستوجب دراسة الجذور التاريخية للظاهرة موضوع الادراك، والكشف عن تطوراتها، ومقارنة حقبها ومراحلها، وان تتم المقارنة التاريخية على مستوى حقب ومراحل تطور الأمة والمجتمع والاديب. وفي هذا يوضح في عمله «من تاريخ الأدب العربي» «ان الطريقة المعقولة في دراسة فن «الاخطل» تقضي بأن نرتب شعره ترتيبا تاريخيا مراعين أطواره التي مر بها في أسنانه المختلفة.. بمعنى ان ندرس شعر «الاخطل» في شبابه. ثم نتابع دراسته بعد ان تقدمت به السن. ثم نواصل هذه الدراسة بع ان تم له النضج الفني»(٢١). وذهب الى وجوب اجراء المقارنات بين الأمم والحضارات والأفكار الكبرى، كما فعل في مقارناته للحضارة العربية والغربية على سبيل المثال. لقد أكد بهذا وغيره اهمية المقارنة الداخلية الزمانية والمقارنات الخارجية المكانية. واذا كان الحاح «طه حسين» على ضرورة استخدام الاسلوب التاريخي في البحث وفي النقد العربي، قد باعد بينه وبين «ديكارت» بقواعده المجردة والمطلقة احيانا. فقد قربه من رؤية علم الاجتماع للتاريخ إجمالا. ونخص منها أفكار «أوجيست كونت» حول مراحل تطور المجتمع الانساني «المرحلة اللاهوتية والميتافيزيقية ومرحلة العلم الوضعي» وتفسير التاريخ لدى «ابن خلدون» والمقارنات التاريخية بين الظواهر والمجتمعات لدى «دور كايم» الذي بدا لكثيرين ان من خصائص علم الاجتماع لديه ان يكون ذا أفق وعمق تاريخيين (٢٢).

ب ـ الموقف من التاريخ :

اذا كان الاستطلاع السابق قد بين أن طه حسين تأثر بكثير من الفلاسفة والعلماء. منهم في علم الاجتماع ابن خلدون واوجيست كونت ودور كايم وتلاميذه. فانه تأثر في منطلقاته الفلسفية بدرجة أكبر «بإيميل دور كايم» اكثر من غيره. اما عن رؤيته للتاريخ، فيقودنا الاستطلاع والتحليل الى انه تأثر في كوينه لهذه الرؤية بكثير أيضا. لكن بدا لنا انه كان اكثر تأثرا «بإبن خلدون»

وشواهدنا على هذا، ما يلي من أسس وقواعد :

الاولى : وترى بأن الحركة التاريخية لاتنقطع ابدا، كما ان الحركة الاجتماعية لاتنقطع أبدا. كلتاهما أشبه بنهر متجدد لايخف مجراه او يتوقف. لقد تمثل «طه حسين» في هذا وعلى نحو مباشر بما قاله ابن خلدون عن «اختلاف العالم في الامم وانتقالها من حال الى حال على الايام والازمنة(٢٣). لقد شخص هذه الحركة باعتبارها صاعدة نحو الاعلى والارقى، وان هذا التصاعد لايسير في وثبات وانما في تطور تسلم فيه المرحلة السابقة الى اللاحقة. لقد اكد «طه حسين» في عمله السابق الاشارة اليه «من تاريخ الادب العربي» «ان الحياة في أمة من الأمم لاتنقلب إنقلابا فكريا في مدة يسيرة من الضد الى الضد.. إن تحول الأمم من لون من الحياة الى لون آخر لايكون بالوثبة وانما يكون بالتطور(٢٤).

الثانية : وتذهب الى انه بجانب حدوث التطور في المجتمع وفي الفكر وفي الادب، هناك ايضا الثبات الذي يأتي للمجتمع وللفكر وللأدب من داخل كل ومن مقوماته وخصائصه. لقد كشف «طه حسين» بقبوله بالتطور والثبات أو ما يسمى بلغة «أوجيست كونت» الديناميكا والاستاتيكا الإجتماعية، عن تأثره بوضعية «كونت» والذي أكده بقوله «نحن نعلم ان شيئين يكونان الجماعة في رأي «أوجيست كونت»: شيء ثابت لايتغير وهو أصل الجماعة وأصل نظامها، وشيء يتغير ويستحيل.. ففي الجماعة عند «أوجيست كونت» ثبات وحركة. فبفضل السكون او الثبات تحفظ الجماعة وحدتها على اختلاف الازمنة. وبفضل هذه الحركة او هذه الاستحالة تتفق الجماعة مع ما يختلف عليها عن ظروف الحياة وأطوارها»(٢٥).

الثالثة : ان حركة التاريخ او ثباته، ليسا أمرين عشوائيين لانهما محكومان بحتمية تاريخية وبأسباب ومسببات، ان التاريخ فيما رأى «طه حسين» ينطوي على قوانين حتمية لاتترك مجالا لإمكانية أخرى.. وأحداث التاريخ على صغرها مترابطة بجملة من العلل الواقعية، التي لامعرفة تاريخية دون الكشف

عنها(٢٦). ان هذه القاعدة تفصح عن تأثره «بابن خلدون» ويدلل على هذا مديحه له لاستباقه «مونتسيكو» في هذا الأمر بتأكيده للجبر او الحتمية التاريخية(٢٧). على ان هذه الحتمية التاريخية تتجسد لديه من خلال مجموعتين من العوامل : الخارجية المرتبطة غالبا بالتطور الناتج عن الاتصال بين الجماعات والمجتمعات والحضارات، والداخلية المرتبطة غالبا بالثبات وبخصائص الجماعة، وانه لكي ندرس التاريخ تطورا وحركة علينا بربط الأسباب بالمسببات والكشف عن التشابه والاختلاف بين المراحل والحقب، سواء أكانت خاصة بانتاج ادبي او فكري او بمجتمع من المجتمعات. . انها هي الافكار والمبادىء المنهجية التي لخص بها رؤية ابن خلدون للتاريخ عند إعداده لأطروحته حوله(٢٨).

الرابعة : اذا كان قد ربط تفسيره للتطور والثبات، ولهوية الفكر والابداع، بالسياق الاجتماعي التاريخي الشامل على ما هو فكري وثقافي وسياسي، فانه نتيجة لتأثره «بإبن خلدون» أبرز اهمية العوامل الاقتصادية التي غالبا ما جعلها «دور كايم» «ذات دور أقل تأثيرا، نتيجة لحتميته الاجتماعية التي ربطها بالعقل الجمعي وبالتصورات الجمعية. لقد ذهب «طه حسين» ، إلى أنه «اذا تغيرت ضروب العيش. . وجب ان يتغير الشعر الذي يتغنى بها»(٢٩). ولعل التدقيق في هذا يكشف أنه أشبه بصورة مرآة لفكرة ابن خلدون الذاهبة الى تغير أفكار الناس وقيمهم بتغير فرصهم من المعاش(٣٠).

الخامسة : وتذهب الى وجود تشابه ووحدة في التاريخ الانساني، بين الحضارات والمجتمعات الإنسانية، وبين الآداب العالمية. لقد برز هذا الفهم من مقارنته للحضارة العربية بالغربية، وللعقل الشرقي بالعقل الغربي لقد أفصح ذلك عن نفسه في عمله «مستقبل الثقافة في مصر» كما بين في دراسته لابن خلدون» ان ابن خلدون اكتشف قانونين يتعارضان ـ دائما ـ في كل المجتمعات. وهما «قانون التباين» و «قانون التشابه». وإذا كان اول هذين القانونين يؤكد عدم التماثل المطلق بين المجتمعات، فإن ثانيهما يؤكد وحدة الظواهر الاجتماعية.

فالمجتمعات البشرية تتشابه على أساس من الوحدة العقلية للجنس البشري. والتي تؤكد بدورها عدم وجود فارق جذري بين روحين بشريين. وهذا يؤكد إمكانية وجود تشابه بين المجتمعات المتباينة وإمكانية إنتمائها إلى عائلة إنسانية متحدة. واذا كان قانون التشابه يؤيد «ان الحياة الانسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما اختلف عليها من الخطوب» فإن الوحدة العقلية للجنس البشري، تتحول لتصبح اساسا للتقارب بين الثقافات، ومبررا لالغاء الهوة بين أمم متخلفة واخرى متقدمة، مما يعني تجاوب «العقل الشرقي» و «العقل الغربي» في وحدة واحدة(٣١)». تلك الوحدة التي بدت عاملا هاما من عوامل حركة التاريخ، لقد اعتبر «طه حسين» ان تطور العقل من التفكير الميتافيزيقي الى اللاهوتي ثم الى الوضعي مراحل أساسية في التاريخ الانساني، ولايخفى على دارس الفلسفة وعلم الاجتماع تأثره في هذا «بإبن خلدون» و «أوجيست كونت» خاصة الاخير الذي طور «دور كايم» أفكاره بإعتباره العقلانية المتأسسة على العلم في الفكر والاخلاق قاطرة تحديث المجتمع وتحريكه نحو صورته المثلى(٣٢).

جـ المنطلقات الايديولوجية والاختيارات الاجتماعية :

تتحدد غالبا هذه المنطلقات وتلك الاختيارات لدى المفكر والاديب والباحث من خلال تناوله للمسألتين السياسية والاجتماعية ومن خلال رؤيته للعالم. ذلك التناول الذي يتجسد من خلال موضوعات بحوثه وإبداعاته، ومن خلال المرامي والاهداف التي تطلع الى تحقيقها من خلال صورة مستقبلية مرغوبة لمجتمعه وللإنسانية.

إنه في ضوء عدد من الدراسات التي هدفت تبيين هذه المنطلقات وتلك الاختيارات وبمساعدة ما قمنا به من تحليلات لبعض أعماله البحثية والابداعية. أمكن استخلاص ثلاثة أهداف كبرى رآها ضرورية للوصول الى المجتمع الحديث هي : العقلانية والليبرالية والمساواة. يتحقق الهدف الاول المتمثل في العقلانية بتطوير التفكير الانساني عندما يأخذ بالعلم ومنهجه. وسعى «طه

العلم ويكتبون فيه وحدهم، بل هو حتم على الذين يقرأون أيضا فلن تفيدهم قراءتها إلا أن يكونوا أحراراً حقا»(٣٣). ولا يخف على كل باحث ومبدع ذلك الدور الهام للمتلقي، لا في تقييم المنتج فقط، وإنما بدفعه أيضا خطوات نحو آفاق الاجادة وبلورة الابداع وتحقيق الالتزام. فبعض من عائد الكاتب يأتي من ان له قراء يرون انتاجه عبر مراياهم، فيطور ويجدد ويجود. ولعل من بين ما حرص «طه حسين» على تنبيه قارىء أعماله اليه هو إصراره على وضع العلم في مرتبة اولى بوصفه قاطرة الحضارة وسياج الحرية والاستقلال. ففي عمله «مستقبل الثقافة في مصر» «طالب بأن نضيف إلى الحرية والاستقلال، الحضارة التي تقوم على الثقافة والعلم، والقوة التي تنشأ عن الثقافة والعلم والثروة التي تنتجها الثقافة والعلم». كما نجده يرجع الكثير من الخطوب التي ألمت بالمجتمع المصري إلى تقصيره في الثقافة والعلم. ولولا ان مصر قصرت طائعة او كارهة في ذات الثقافة والعلم لما فقدت حريتها ولما أضاعت استقلالها(٣٤).

لقد تطلب منه التمهيد لنشر التفكير العلمي، مناقشة إشكالية العلاقة بين الدين ولعلم. وهي اشكالية كانت مطروحة أمام معظم الفلاسفة والكاتبين الذين تعرف على انتاجهم خلال دراسته في فرنسا. ان ما يهم الاشارة اليه هنا انه لم يكن «لطه حسين» موقفا واحدا جامدا عند مناقشته العلاقة بين الدين والعلم. لقد خضع موقفه للتغير والتراوح والتبدل. انه تغير يفسر بعوامل عامة مجتمعية، حددها السياق المجتمعي الذي عاشه والذي طرح رؤيته من خلاله. كما يفسر هذا التغير بعوامل ذاتية، ارتبطت بمراحل تطوره العمري، وحصاد ممارساته وخبرته. فبين اندفاع وحدة في الشباب الباكر، وسعي الى التوفيق من بعد، وصولا الى رؤية اكد فيها ضرورة الدين واهميته في الهوية القومية وفي انجاز اهداف العدل الاجتماعي. لقد قدمت بعض الدراسات شواهد غير قليلة على هذا التغير والتطور في رؤيته.

ففي بدايات ممارساته للنشاط الفكري والبحثي كان حريصا نتيجة لتأثره بالفكر الوضعي والعلماني الاوروبي، خاصة فكر «ديكارت» و «دور كايم»، على

توفير شروط تحرره كباحث من كل أفكار واحكام مسبقة تعوق فهمه الموضوعي لما يدرك(٣٥)، انه تحرر بدا محددا بلحظة التحري والتحقق العلمي ولم تتجاوزها إلى لحظات أخريات. لقد بدا موقفه حينا شبيه من بعض الوجوه، بموقف «الامام الغزالي» عندما جد في طلب تحرير العقل من التقليد عندما قال «فاعلم يا أخي انك متى كنت ذاهبا الى تعرف الحق بالرجال من غير ان تتكل على بصيرتك فقد ضل سعيك. فإن العالم من الرجال انما هو كالشمس او كالسراج يعطي الضوء. ثم انظر ببصرك فإذا كنت اعمى فما يغني عنك السراج والشمس. فمن عول على التقليد هلك هلاكا مطلقاً(٣٦).

وعندما واصل مناقشة هذه العلاقة في عمله «من بعيد» عام ١٩٣٥، تراوح بين توضيح وجود خصومة بين الدين والعلم تارة، وبين توضيح الاخصومة بينهما تارة اخرى. ان الخصومة كما رأى بعد ذلك هي بين أنصار القديم والجديد. تلعب السياسة فيها غالبا الدور الاكبر. ذلك الدور الذي لايعد وقفا على حضارة او امة بعينها. فقد كان امر مشترك بين أمم وحضارات كثيرة وعبر مراحل تاريخية متباينة(٣٧). لقد ذهب في ضوء هذا الى ضرورة التوفيق بين الدين والعلم وبأن يتاح للانسان «ان يكون مؤمنا عالماً دون ان يغلو التعصب.. وان يجمع بين هاتين القوتين اللتين ليس له عنهما غنى ولا منصرف. ويطمئن الى الدين دون ان ينكر العقل ويطمئن الى العقل دون ان يجحد الدين»(٣٨).

واذا كان قد حاول في عمله «مستقبل الثقافة» ان يقيم هذا التوفيق، فلم يخفى الوجه العلماني لرؤيته، رغم تأكيده المستمر على لزوم الدين وضرورته للفرد والمجتمع. لقد ذهب في هذا العمل الى «ان المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية» وانهم ـ حسب رأيه «قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول المدنية الحديثة. وهو ان السياسة شيء والدين شيء. وان نظام الحكم وتكوين الدول يقومان على المنافع العملية»(٣٩). هذا في الوقت الذي اكد فيه في العمل نفسه اهمية الدين في التنشئة وفي التعليم وفي تأسيس الشخصية الوطنية «فقد قدمت ان الدين مقوم من مقومات الشخصية الوطنية. وأنا مؤمن بهذا فيما بيني

وبين نفسي أشـد الايمان»(٤٠) وجملة الامـر ان الـدولـة يجب ان تشرف على المدارس الاجنبية. فتكفل لابنائها الذين يدخلون هذه المدارس ما تكفله لابنائها الذين يدخلـون المدارس الوطنية، من التعليم الصحيح للغة القـومية، والتاريخ القومي والجغرافيا القومية والدين القومي(٤١).

على ان الاعمال التي تلت هذا، خاصة منذ الاربعينات والتي من بينها «الوان» و «الفتنة الكبرى» و«المعذبـون في الارض» تمثل مرحلة جديدة، برز فيهـا الوجه التراثي لرؤيتـه في مناقشة عـلاقة الدين والعلم. لقـد ظهر في عمله «الـوان» عام ١٩٤٦ نـاقداً أولئك الّـذين يفكرون في العـدل الاجتماعي وينظرون الى مـا وراء البحر المتـوسط ليلتمسوا في أوروبـا هذه الأفكـار. ولاينظرون الى فكـرة العدل الاجتماعي كما وجـدهـا المسلمـون قبل ان ينتصف القـرن الاول من الهجـرة. وأضاف «لا اريد ان نستعير من اوروبا هذا المذهب او ذاك، وإنما احب ان الفت الى ان لنا في المطالبة بالعدل الاجتماعي تاريخا حافلا يستحق ان نرجع اليه. فنحن لسنـا عيـالا على المطـالبين بـه من الاوربيين». وبين في الجزء الاول من «الفتنـة الكبرى» ان الانسـانيـة سلكت في سبيل الحكم الصـالح والعـدل الاجتماعي كل الطرق وجـربت كل النظم ولم تنته الى غـاية وما زالت تشكـو من الظلم وتضيق بالاستذلال والاستقـلال وتبحث عن النظام القويم الذي يضمـن للناس الحرية والعدل جميعـا. هذا النظام هـو الذي حاولت الخلافـة الإسلامية لعهـد أبي بكر وعمر ان تنشئه(٤٢).

واذا كان مـا سبق من اقتباسات يـدلل على بعض من اهم أفكاره التي شكلت موقفه عند مناقشته للعلاقة بين الدين والعلم. فانه من قبيل التعسف العلمي ان نقيم علاقـة مباشرة بين موقفه وبين من قـرأ لهم وتأثر بهم. فقضية العلاقـة هذه كانت مطـروحة في سـاحة الفكر الأوروبي، شـارك فيها معظم من قـرأ لهم «طه حسين» من فـلاسفـة وعلماء اجتماع وأدبـاء. وكان لكل منهـم موقفـه المحـدد. خاصة علماء الاجتماع من امثال أوجيست كـونت وإيميل دور كايم والذي كان لكل موقفه المتميز والتقـائه مع الآخرين في بعض النقاط والابعاد(٤٣). على ان

ظلال الايحاء أتت من «كونت ودوركايم» خاصة في الفترات الاولى من عمله البحثي والفكري حين كان الوجه العلماني متغلبا في مناقشته لهذه القضية. كما كان اكثر تأثراً بطريقة «دور كايم» في تناول العلاقة بين الدين والعلم. فقد بين «ريمون ارون» و «آلان سونجوود A. Swingewood ان «دور كايم» كان على قناعة بأهمية الاخلاق في ربط الناس برباط مجمع، وان هذه الاخلاق تعتمد على القيم والعقيدة الدينية، وكان من العلمانيين الذين طالبوا بفصل الدين عن السياسة، وان اكد دور الدين في التربية. وفي تأسيس الضمير الجمعي(٤٤).

واذا انتقلنا من هذه القضية الى موقفه من المسألة السياسية، سنجده من أنصار التعددية السياسية والليبرالية في الاجمال. ولعل من الشواهد على هذا بعض كتاباته وأعماله. لقد ذهب «في مستقبل الثقافة» مثلا إلى أننا نريد الحرية الداخلية وقوامها النظام الديموقراطي. ونريد الحرية الخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح والقوة التي تحوط هذا الاستقلال(٤٥). وقال في كتابه (مرآة الضمير) ١٩٤٩ تحت عنوانه «الحرية أولا» «ولكن من حق الناس جميعا أن تهيأ لهم الفرص وتعد لهم أسباب التفوق والابتكار وأول ما يجب لذلك ان يتاح للشباب ـ وللشباب خاصة، ما ينبغي لهم من الحرية التي تفتح قلوبهم وعقولهم وضمائرهم.. فاذا لم تتح لهم هذه الحرية فلا تبتغ منهم خيرا ولا ترج منهم نفعا»(٤٦). كما نجده في «مستقبل الثقافة» يؤكد على وظائف الديموقراطية بعامة، ودفعها للعملية التعليمية على وجه الخصوص «يجب ان تضمن الديمقراطية للناس ما يقيم أودهم، ويعصمهم من عادية الجوع، ولكن يجب ان نضمن لهم مع ذلك القدرة على ان يصلحوا من أمرهم، ويتجاوزوا ما يقيم الأود الى ما يتيح الاستمتاع بما أباح الله للناس من لذة ونعيم في الحياة.. وأول وسيلة من وسائل الكسب التي على الديمقراطية ان تضعها في أيدي الافراد انما هو التعليم الذين يمكن الفرد من ان يعرف نفسه»(٤٧).

يصعب علينا بشأن موقفه من المسألة السياسية ان ندعي لعلم الاجتماع دورا مباشرا او محددا في تشكيل موقفه منها. فما طرحه حول الليبرالية، اجمالا

والديموقراطية تحديدا، طرحه مفكرون أوروبيون وعرب غير قليلين. وان وجد تشابه في الموقف العام دون التفصيلات بين موقفه وموقف «أوجيست كونت أو ايميل دور كايم» فهو ناتج عن تعرضهم جميعا للفكر الاوروبي على انه تظل نقطة لفتت نظرنا، تتعلق بدور الدولة أمام نشاطات بعض النقابات والجماعات المهنية. وهي نقطة لاتخلو من وجود حدود اتفاق واضحة بين موقفه وموقف «دور كايم» عند مناقشة كل منهما لهذا الدور. لقد طالب «طه حسين» في الفصل الخامس والخمسين من «مستقبل الثقافة في مصر» عندما كان يتحدث عن بعض وسائل الاتصال الجماهيري كالصحافة والاذاعة. بتقييد حرية هذه الادوات نتيجة لادوارها الهامة والخطيرة في التربية والتوجيه. لكنه اكد وشدد على انه لايريد ان تكون ادارة الامن العام او إدارة المطبوعات هي التي تقيد الحرية وانما نقابة الصحافة هي التي ستشرف على الصحافة وقد مثل ذلك في لجنة الراديو (٤٨). ان هذه الرؤية تجمع بينه وبين «دور كايم» في تحديد دور المجتمع المدني كأحد مجالات بلورة الديمقراطية. لقد بين «دور كايم» في أعماله خاصة «تقسيم العمل الاجتماعي» و «المواثيق والاخلاق المدنية» ضرورة ان تتحول النقابات الى نظام يرعى ويدير الجماعات المهنية. يوفق بين مصالحها، ويحل صراعاتها، على الا تتدخل الدولة في هذه النقابات (٤٩).

وإذا أتينا الى موقف «طه حسين» من المسألة الاجتماعية وإختياراته لتناولها. سنجده اهتم بوصف صورها والتحذير من مخاطرها. اكثر من اهتمامه بتفسيرها وتحديد أسبابها. لقد تحدث كثيرا عن «الجهل» وبين أهمية التعليم وضرورته. وكان صاحب الشعار الذي طالب بأن يكون التعليم كالماء والهواء تجسيدا لضرورة اتاحته مجانيا اما كل أبناء المجتمع. كما اعتبر الديموقراطية والتعليم ركيزتين لاعادة توزيع الفرص السياسية والاجتماعية بين المواطنين(٥٠) واهتم برصد صور الفقر وتجسده اجتماعيا وآثاره على الافراد التي من بينها انتشار المرض والاغتراب وتفكك المعايير والانتحار. لقد اتضح هذا متحدثا عن نفسه في «المعذبون في الارض». وهو العمل الذي حرص فيه على تحذير الاغنياء من

مخاطر انتشار الفقر وتراكمه. وهي مخاطر من شأنها تهديد الاستقرار الاجتماعي. وقدم نموذجا من نماذج العدل في الإسلام وهو النموذج الذي قدمه الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب».

أما عن موقفه من دور الدولة في المسألة الاجتماعية، فقد طالب الدولة بالتدخل لتيسير الديموقراطية السياسية والتعليمية وتكافؤ الفرص في الكسب والعمل والحياة الكريمة. والتمتع بما أباح الله من طيبات وخيرات(٥١).

ومع وجود قدر من التباين في التفصيلات بين رؤيته للمسألة الاجتماعية وبين رؤية علماء الاجتماع الذين تفاعل مع أفكارهم خاصة ابن خلدون وأوجست كونت، إلا ان ثمة التقاء على الاقل في الموقف العام من رؤية أستاذه دور كايم، فثمة ايحاءات وتأثيرات بدت في أعمال «طه حسين» يدلل عليها تلخيص موقف دور كايم من هذه المسألة. وفي هذا الصدد يجمع شراح دور كايم على انه لم يفسر المسألة الاجتماعية تفسيرا طبقيا(٥٢). لانه ارجعها الى الفوضى التنظيمية والاخلاقية. ومن ثم فمنطلقات تناولها هي العقلانية والترشيد والليبرالية قصد ايجاد تواؤم بين العمل ومتطلباته والانسان العامل واستعداداته. ان الخلل الاجتماعي المرتبط بالفوضى التنظيمية صاحبه خلل لا في توزيع الثروة وانما في توزيع القدرات والاستعدادات من خلال الفرص المهنية التي تنظمها النقابات وليس الدولة، ومن خلال تأسيس نظام للضبط الاجتماعي الاخلاقي يكفل الاستقرار والتوازن(٥٣).

واذا كانت رؤيته قد تباينت وتغايرت عن علماء الاجتماع الذين تفاعل مع أفكارهم في بعض التفصيلات والآليات خاصة في مسألة التعليم وتكافؤ الفرص فقد اتفق معهم في تفضيله الاصلاح الهادىء على الثورة المحملة بالمخاطر والمشكلات. وبالاعتماد على الديموقراطية والعقلانية وإعادة التوزيع المحسوبة. كما شاركهم في الرؤية الفلسفية العامة، المثالية الهوية والاخلاقية المضمون والمعتمدة على تعليم الناس وتوجيههم كأسلوب عام في الضبط

الاجتماعي(٥٤).

ولعل هذا الالتقاء حينا مع المصادر الفكرية التي تعامل معها، والتنائي حينا آخر عنها بسبب ما فرضته عليه الممارسة وواقع المجتمع المصري. هو الذي جعل البعض يسم موقفه من القضايا السياسية والاجتماعية بالقلق والمراوحة. فقد كان من أنصار الاصلاح كما تشهد بعض أعماله، وانتقل من حزب سياسي الى آخر مغاير له في الفلسفة والاختيارات، فقد انتقل من حزب الاحرار الدستوريين حزب الخاصة الى حزب الجماهير. وكتب مرة قائلاً: (وإذا لم يكن من بد في ان أبين مذهبي في الحياة السياسية والاجتماعية، فليعلم اني لا احب الديموقراطية المحافظة ولا المعتدلة، ولا أقنع بالاشتراكية الفاترة، وإنما أياسر الى أقصى ما أستطيع»(٥٥). لقد وصفه البعض بأنه من أنصار الاصلاح الهادىء المدروس، ووسمه آخرون بالمحافظة أحيانا وبالردة حينا(٥٦). ووصفه فريق ثالث بأنه من أنصار التوفيق الذي بدا كالمرايا المتجاورة(٥٧). وذهب فريق رابع الى انه من انصار الوسطية التي شكلت ومنذ الحرب العالمية الاولى. وبعد ذلك، تيارا غالبا في الفكر العربي، خاصة في المشرق العربي(٥٨). كما يمكن اعتباره من المبشرين بنوع من الاشتراكية المثالية على نمط الاشتراكيين الفرنسيين الطوبائيين.

واذا كان كل من تعرض لمواقفه بالتشخيص قد انتفى من الشواهد ما يدعم وجهة نظره. فإن الفيصل فيما يرى أنصار الرؤى النقدية هو الممارسة الواقعية ومقدار إتساقها مع الاقوال، فليس بالقول المعلن او حتى الموارب او المضمر يكون الحكم على الرجال الذين جمعوا بين الفكر والعمل. . فالحكم الدقيق يكون بمقدار ممارستهم الاجتماعية، خاصة اذا كانت قد اتيحت لهم فرص المشاركة الواضحة في صنع السياسات العامة وصنع القرار، وشغل مواقع تنفيذية هامة كما هو الحال عند «طه حسين».

ثالثاً : المنهج في الممارسة :

لم يكن رصدنا للأسس المنهجية التي صاغها «طه حسين» منعزلا عن أمثلة وشواهد من عدد غير قليل من ممارساته البحثية والابداعية . وهو ما أطلقنا عليه المستوى الكلي العابر للكثير من أعماله . وفي الصفحات التالية سنحاول الوقوف بالتحليل الى عدد محدد من أعماله هي بمثابة الحالات Cases الدراسية بلغة مناهج البحث . ولان الحالات وحدات الدراسة تخضع لشروط ، بعضها عمدي او يكاد ، فقد تخيرنا الحالات التي افترضنا وجود تأثير لعلم الاجتماع في بنيتها الفكرية والمعرفية ، قصد استطلاع ملامح هذا التأثير ومداه .

١ — في سوسيولوجيا مهنة الأدب والدور الاجتماعي للأديب في المجتمع المعاصر :

أنجز «طه حسين» دراسة موضوعها «الكاتب في المجتمع المعاصر» نشرت بالفرنسية ضمن أعمال المؤتمر الدولي للفنانين الذي نظمته اليونسكو في مدينة البندقية في سبتمبر ١٩٥٢ . شارك فيه كوكبة من الفنانين والادباء وعهد فيه إلى «طه حسين» باعداد التقرير الخاص بالأدب(٥٩) . وفيما يلي أهم أبعاد هذه الدراسة ومحاورها :

أ — هدف الدراسة : قصد «طه حسين» من هذه الدراسة توضيح أبعاد دور الاديب ومكانته في المجتمع المعاصر بالتركيز على ما يسمى بدور الحرفة الثانية في حياة الاديب . ولقد صاغ هدفه هذا عبر أسئلة رئيسية هي : كيف يمكن التوفيق بين واجبات الاديب الاخلاقية واحتياجاته الحيوية؟ كيف يتاح للأديب ان ينشيء عملا حرا صادقا دون أن يضار من موارد عيشه؟ بعبارة اخرى كيف نهتدي إلى الصلة بين شئون الفكر ومقتضيات المادة؟ .

ويهمنا هنا الاشارة الى انه قبل ان يقدم تساؤلات بحثه ، ناقش عددا من الامور . في مقدمتها تلك التغيرات التي طرأت على المجتمع الانساني بفعل الصراعات الدولية والتغيرات في التقنية وانتشار القراءة والكتابة . وانعكاسات

هذا كله على دور الادب ومكانته في المجتمع .

ب — لقد بدأ منهجيا بتحديد عناصر موضوع بحثه وتوضيح خصائصه كظاهرة اجتماعية . فرعاية الادب من السلطة او موقفها السلبي منه كانت ظاهرة شملت ازمانا وحقبا ومجتمعات شرقية وغربية . وبالنسبة للحرفة الثانية كما يقول «ليست ظاهرة جديدة اذ يكفي ان تلقى نظرة سريعة على التاريخ في أي بلد نختاره وايا ما كانت الفترة التي نخصها بالاهتمام ، ليتبين لنا ان الكتاب والفنانين على السواء قد مارسوا في أغلب الاوقات حرفة ثانية» . ويوضح هذا اهتمامه بالتأريخ للظاهرة ومقارنة بعض أوضاعها وملابساتها زمانيا ومكانيا . وفي هذا السياق تحفظ على ما يسمى بالحرفة الثانية لتوضيح ان الادب ليس حرفة ، في حين ان ما يسمى حرفة ثانية هو ما يقوم به الاديب من عمل أساسي . وقد قاده هذا الى قلب سؤاله ليكون : هل يمكن للكاتب ان يقتنع بأن يكون كاتبا لاغير؟ وفي تحليله لأوضاع الكاتب ، يبين احتمالات تواجده اجتماعية بقوله : إما ان يكون الكاتب ثريا او صاحب حرفة او لايكون له سوى قلمه . وبين شروط وملابسات كل وانعكاساتها على أوضاع الكاتب وارتباطه والقيود الممارسة عليه وإمكانات تحرره منها ، حسب موقعه النسبي من هذه الحالات المذكورة .

جـ — خلص من دراسته الى نتائج من بينها : أنه بحكم الواقع المفروض على معظم الكتاب «الظاهرة الاكثر انتشارا وعمومية» فإن الكاتب بحاجة الى حرفة تيسر تفاعله مع مجتمعه وتستحث وجدانه وخياله ، وان تتيح له حرية الحفاظ على قدراته الابداعية وتوجيهها الى ما يعتقد انه الامضى دون إضطرار لتقديم انتاج تفرضه الحاجة . وبين ما لهذه الحرفة من آثار سلبية على الكاتب من حيث انها تشغله عن إبداعه وقد تؤثر بقيمها واخلاقياتها في قيم الفكر والادب وأخلاقياته . كما بين انه نظرا لحاجة الكاتب الى الحرفة فعليه ألا يختار الحرفة القريبة من الادب مثل الصحافة والسينما والاذاعة . فالاشتغال بالصحافة يختلط مع الادب ويوسم انتاج صاحبه بالتبسيط والعجلة(٦٠) .

ما يهمنا الاشارة اليه بشأن هذه الدراسة انها تجسد أسسا من منهجه خاصة ما تأثر فيها بعلم الاجتماع. فقد اختار موضوعه بوصفه ظاهرة، درسها من المنظورين التاريخي والمعاصر، وفسر أوضاع الكاتب بالسياق العام وما يفرضه عليه من حتمية اجتماعية جعلته لايجد بدا من إختيار حرفة لاشباع حاجاته الحياتية، ومواصلة إبداعه لاشباع حاجته للابداع. ان المتابع لهذه الدراسة في اجمالها وتفصيلاتها بوسعه ان يعتبرها اقرب الى البحث السوسيولوجي منها الى البحث الادبي.

٢ — مستقبل الثقافة في مصر وسوسيولوجيا التربية :

يوضح التحليل الكمي التقريبي لهذا العمل ان قضايا التربية والتعليم استغرقت ما يقرب الثلثين من صفحاته. وهو عمل يتجاوز فهم قضايا التربية وعملياتها، بالمعنى التقليدي المحدد للتربية. لقد قصد منه التطلع الى الشمول النسبي الذي ربط التربية بالعلاقات الخارجية المتمثلة في التبعية التعليمية التي فرضها الاحتلال البريطاني وجسد الكثير من رموزها والتي منها المدارس واللغات الاجنبية. كما ربطها بأوضاع البنية الداخلية للمجتمع وتبادلها التأثير والتأثر مع التعليم. فالديموقراطية تساهم في توفير تكافؤ الفرص التعليمية (المجانية وحقوق المعلم والمتعلم معا). كما ان التعليم نفسه يهيىء فرص رقي الديموقراطية وتطورها. لقد ناقش بجانب كل هذا الكثير من القضايا والابعاد التي لاتزال مثار نقاش وجدل بين المدارس التربوية لا في مصر وحدها وإنما على امتداد الساحة العربية. ومن هذه القضايا :

أ — أهمية التعليم الابتدائي ومقارنتها بخطورة الامية.

ب — ضرورة تباين المدارس وتنوعها شرط التنسيق بينها وتوفير الحد الضروري لتكوين الشخصية الوطنية.

ج — ليس المهم في التعليم المباني والتأثيث وإنما المضمون. وليس المهم المنهج والبرنامج فقط، وانما ايضا طريقة التنفيذ والاشراف والنظام الاداري (٦١).

د — اهمية تعلم اللغات الاجنبية وخطورته، وضرورة الاشراف الدقيق عليه.

هـ — ضرورة الترابط والتوفق بين مراحل التعليم المختلفة.

و — الربط بين التعليم النظري والعملي وربط التعليم ببطالة المتعلمين.

ز — الربط بين المدرسة والاسرة لتدعيم كفاءة العملية التربوية (٦٢).

ح — ناقش مجانية التعليم وطالب بإتاحة الفرصة لذوي الاستعداد.

ط — ازدحام الفصول وأثرها على كفاءة العملية التعليمية.

ي — ضرورة تطوير وتنويع أساليب الامتحان والتقويم (٦٣).

ك — أهمية القراءة الحرة ومن ثم دعم المكتبات التعليمية.

ل — الاهتمام باعداد المعلم.

يمكن ان تطول قائمة القضايا والمسائل التربوية، لكننا قدمنا ما يوضح التعامل مع التعليم كظاهرة مجتمعية تتبادل التأثير والتأثر مع غيرها من أبعاد المجتمع وظواهره. وان للتعليم وظائف مجتمعية ذات صلة بالتنشئة والتثقيف والاعداد للعمل والمشاركة. وان له دوره الوطني والقومي في تأسيس ركائز الشخصية وإنتماءاتها. إنها رؤية اجتماعية شاملة. ولأنها هكذا فهي تطرح أسئلة على القارىء وعلينا. لماذا هذا الاهتمام بالتعليم؟ ولماذا هذا التناول مقارنا بغيره ممن تناولوا قضايا التعليم خلال فترة إصداره لعمله المذكور؟.

واذا كان تناوله لقضية التعليم يقترب من رؤى علم الاجتماع التربوي ودراساته في الخطوط العامة على الاقل، فبوسع المدقق استنتاج تأثره بعبدالرحمن بن خلدون كما بين هو في عمله حوله. عندما حرص على توضيح آراء «ابن خلدون» في التربية ووظائفها ومتطلابتها: فهي لديه ظاهرة اجتماعية تتأثر وترتبط بالزمان والمكان وأن غايتها اعداد رجال يستطيعون العيش جيدا. كما رفض «ابن خلدون» الشدة في التربية وكثرة المواد التي تدرس للطفل لاثرها

السلبي على عقله. هذا فضلا عن اهتمامه بتدريس اللغة وقواعدها سواء العربية او الاجنبية. ولعل متابعة مقدمة ابن خلدون نفسها يظهر لنا ربطه الواضح بين التعليم والثقافة على نحو شبيه بما فعل «طه حسين» في كتابه «مستقبل الثقافة» وتأكيد ضرورة الربط بين التعليم النظري والعملي(٦٤).

وبجانب تأثره بابن خلدون نلاحظ تأثرا بإيميل دور كايم بتركيزه على الوظائف المجتمعية للتعليم وتحليل علاقاته بالبنية الاجتماعية، وضرورة ارتباط التعليم بها وبمراحلها المحددة وبما تطرحه كل مرحلة على التعليم من مهام ووظائف. لقد أسهم فكر «دور كايم» في تدعيم اهتمام «طه حسين» بقضايا التعليم. فدور كايم من رواد علم الاجتماع الذين اشتغلوا بالتدريس وتدريب المعلمين وألقى محاضرات في علم الاجتماع التربوي وكانت له أعمالا في هذا الصدد هي «التعليم وعلم الاجتماع»، «التربية الاخلاقية ـ دراسة في النظرية والتطبيق في علم الاجتماع التربوي» و «تطور الفكر التربوي». وهي أعمال وردت فيها أفكار غير قليلة حول تطور التعليم ووظائفه ومحدداته المجتمعية ودوره في إعادة انتاج المجتمع ونشر التفكير العلمي والتدريب على العقلانية والضبط الاجتماعي الضروري لتنظيم الفوضى الأخلاقية(٦٥).

٣ — علم الاجتماع ونماذج من الأدب الإبداعي :

لأن أعماله الابداعية متعددة وتحتاج الى دراسات متخصصة كان لابد لنا من الاختيار من بينها. وقادنا الاختيار الى نموذجين هما: «دعاء الكروان» و «المعذبون في الأرض» بوصفهما مثالين لإستطلاع تأثير علم الاجتماع في سياقهما العام وأنماط شخوصهما وعلاقاتهم الاجتماعية.

النموذج الاول : دعاء الكروان بين التضامن الآلي والتضامن العضوي:

١ — التضامن الآلي والتضامن العضوي نموذجان من نماذج المجتمع الإنساني. يعبران عن ثنائية ومقابلة بين شكلين للمجتمعات اهتم بهما المشتغلون بعلم الاجتماع كثيرا. لقد قصد «إيميل دور كايم» بنموذج التضامن الآلي،

مجتمعا بسيطا يحكمه الضمير الجمعي القائم على القيم والعادات والمشاعر المشتركة ويوسم بالتجانس النسبي والنمطية. تسوده الجماعية والعاطفية والعشوائية. يقابله نموذج التضامن المتباين بنائيا ووظيفيا. يحكمه القانون الرسمي والعقلانية والفردية. (٦٦) ان هذين النموذجين اللذين شكلا العمود الفقري لدراسة «دور كايم» تقسيم العمل الاجتماعي» طرحا على «دعاء الكروان» سؤالا هو : هل من تأثيرات لهذين النموذجين في سياق هذا العمل الابداعي «لطه حسين» وإذا كانت هذه التأثيرات قد حصلت بالفعل فما هي الشواهد عليها؟ .

٢ — لقد أفضت القراءة السوسيولوجية لهذا العمل الى ملاحظة ان احد المحاور البارزة فيه تمثل في المقابلة والمقارنة بين مجتمعي القرية والمدينة المصريتين. وهي مقابلة توحي للوهلة الأولى بوجود ظلال لنموذجي التضامن الاجتماعي المشار اليهما. ومن الشواهد على هذا ما يلي :

أ — بدت المدينة النموذج الارقى والاكثر تحديثا والذي على القرية ان تتطلع اليه وتسير صوبه. ولم تخل ملاحظات وتعليقات «طه حسين» من أحكام قيمية لصالح المدينة في الاجمال. تتمثل مؤشرات رقي المدينة وعقلانيتها في أنماط السكن والملبس والمأكل والشوارع والطرقات. إن أغنياء المدينة اكثر رقيا وتحضرا من أغنياء الريف، حتى لو ملك الأخيرون الثروات نفسها. «أقبلت آمنة على بيت من بيوت الريف التي يظهر فيها الثراء، ويحس أهلها سعة العيش، ولكنهم على ذلك لايأخذون من ترف الحضارة إلا بأيسرها وأهونه، محتفظين بما ألفوا من هذه الحياة الريفية التي لادقة فيها ولا رقة ولا إفتنان في إرضاء الذوق، والتي تكره النظام وتنفر منه. . فالمتاع فيها كثير ولكنه مهمل. . والفرق فيها ملغى بين الحجرات. . في البيت مقاعد وكراسي، ولكن اهل الدار يؤثرون الجلوس على هذه الحصر والأبسطة. . والفرق ملغي بين من في الدار من الناس وما في الدار من الحيوان على اختلافه. . هي الحياة السهلة. . همت ان تتحضر. . ثم لم تستطع ان تتقدم فاكتفت بما اخذت ووقفت عند حد من الحدود لا

تعدوه»(٦٧).

ب — تلعب القيم والمشاعر المشتركة الدور الاكثر اهمية في تحديد السلوك والاختيارات الاجتماعية. فأمام إهدار قيمة الشرف قضت القرية بالقصاص من والد «آمنة» والحكم على زوجته وابنتيه بالخروج الى المجهول، وإعدام «هنادي» لأنها لم تحافظ على عرضها. إنها القيمة التي هانت أمامها قيمة الاخوة وعلاقة الخؤولة. في حين ان مجتمع المدينة قبل فعلة المهن، . واعتبرها مسألة شخصية وهو المسئول عن إختياره أمام القانون الرسمي الذي يعتبر ما تم ربما كان بالتراضي بينه وبين «هنادي».

لقد بين «دور كايم» في معرض توصيفه لنموذج التضامن الآلي في المجتمع البسيط، ان تصرفات الفرد مجرمة حال خروجها على الاجماع القيمي، وعلى الفرد ان يترك الجماعة حتى بدون ان تعلم الجماعة بذلك. وهذا تقريبا ما فعلته «آمنة» عندما خرجت من القرية للمرة الثانية، وإذا كان «دور كايم» قد بين ان العلاقة القرابية هي المسئولة عن التدريب على القيم والحفاظ عليها، فإن «طه حسين» قد جعل القرية تفوض خال «آمنة» ليقوم بالقصاص من أخته وابنتيها بطردهما من القرية، وتنفيذ الإعدام في «هنادي» عندما فرطت في عرضها(٦٨).

جـ — لقد بدت شخصيات الرواية وأفعالها. نتائج حتمية لواقع القرية الذي يسوده الضمير الجمعي بقيمه المشتركة وإلزامه المحمل بالقسوة على الافراد حال الخروج على هذه القيم. فلم تبدل الأم القرار القاضي بتركها هي وابنتيها للقرية. ولم تغفر القرية للإناث فعل الزوج الخارج على القيم مع ان مسئولية الذكر في القرية أكثر تحديدا، وتقابل الإناث غالبا — باستثناء فترة الجاهلية — في الريف العربي بمقادير من الشفقة والتعاطف. لقد كان من المحتم على أفراد أسرة «آمنة» العمل في منازل الموسرين كخدم وليس كعاملات في أي مجال أو نشاط آخر. وقضت الحتمية التي رتبت الحوادث في ضوئها ان يكون الانتقام من الطرف الأضعف، بالتشريد وسلب الشرف، وفي الوقت نفسه تسامح «آمنة» أمام كل

خطايا المهندس .

د — أعطى للتعليم في الرواية ، كما في اعمال بحثية وابداعية اخرى دورا بارزا في تغيير سلوك الفاعلين ، وتبديل نظراتهم للعوالم المحيطة بهم . يدلل على هذا تصرفات «خديجة المتعلمة» و «آمنة» بعد أن نالت قسطا منه . وكان لسان الحال يقول : إن التعليم هو الطريق نحو عقلنة الحياة ، بشرا وأفعالا .

هـ — بدت الصراعات في الرواية بين أفراد هم رموز لمجموعات ومجتمعات . تطلب توازن المجتمع واستقراره حل هذه الصراعات بالانسحاب تارة «ترك القرية» وبالتراضي والتسامح في أخرى . لكن الحب الذي ملأ قلبها ، جعلها تحول هدفها ، من الانتقام من المهندس . . فصفحت ربما عن فعلته بالاعتداء على أختها»(٦٩) .

النموذج الثاني : المعذبون في الأرض والأنومى :

الأنومى بلغة «دور كايم» حالة تعبر عن الفوضى التنظيمية والأخلاقية في المجتمع ، فالتغير الاجتماعي ينتج خواء أخلاقيا واضطرابا في المعايير ، كما يتيح أزمة اقتصادية لاتستطع معها الأساليب المتاحة مجتمعيا تحقيق الغايات المشروعة مجتمعيا . وبالتالي فخلل العلاقة بين الوسائل والغايات يحدث خللا بين الاشباعات والتطلعات . ولقد ربط «دور كايم» بين هذه الحالة وبين أحد أنماط الانتحار الفردي والذي أطلق عليه الانتحار الأنومي(٧٠) .

لقد قصدنا توضيح هذا المفهوم الذي بدأه «دور كايم» في كتابه «تقسيم العمل الاجتماعي» وأتم تحديده وتحليله وتفسيره في عمله التالي الموسوم «الانتحار» قبل ان نسير مع تحليل «المعذبون في الارض» . لقد كان في الذهن ترجيح لاحتمال تأثر «طه حسين» بهذه الحالة عند صياغته لعمله وخاصة ما يتعلق بالنهايات الحتمية التي آل إليها حال أشخاص هذا العمل الأدبي :

أ — تفصح الحتمية الاجتماعية عن هويتها من خلال المسارات التي وضع فيها شخصيات العمل فأفضت الى الموت نتيجة المرض «رفيق» والموت بحادثة

قطار «صالح وسعيد» والانتحار «خديجة» او الجنون او ترك القرية. ويخال لنا ان هذه الحتمية تكاد تجسد جوهرها الفكري بالابقاء على الأصلح، فلم تحل واحدة من مشكلات الشخصيات المذكورة وانما ذهبوا الى قدرهم المحتوم.

ب — يوضح العمل ان احوال هذه الشخصيات وأوضاعها نتجت عن أزمة إقتصادية وأخلاقية وقدر محتوم. فالغني قدر والفقر قدر. وأوضاع البنية الاجتماعية المضطربة تنظيميا واخلاقيا لم تجعل ما أتيح للشخصيات من وسائل بقادر على إشباع حاجاتها وتحقيق تطلعاتها. في حين أنها أتاحت لآخرين وسائل الإسباع فأفلتوا من العذاب في الارض ومن الموت جوعا او مرضا. «أمين نموذجا».

جـ — حذر من الثورة، ثورة الفقراء، وطالب الاغنياء بوضع الفقراء في الاعتبار خشية الثورة عليهم «ويفرض الحرص على ألا تتعرض مصر للأخطار العنيفة قبل إبانها. . وعلى ان يسلك هذا الوطن البائس طريقه الى التطور في أناة ورفق وهدوء. . لاتعصف به العواصف، ولايجري عليه ما جرى على بعض الأمم من هذه الثورات التي لاتبقي على شيء»(٧١). لقد كان حريصا على ان يتوجه الى الفقراء والاغنياء معا بعمله، ويكشف هذا عن نفسه من إهداء العمل، فضلا عن رغبته في تأسيس أخلاق التوازن والتكافل بين الاطراف الاجتماعية «فالرجل العازم الحكيم خليق بأن يرضى بالقضاء المكتوب، والقدر المحتوم، يحتمل الخير غير زاهد فيه، ويحتمل الشر غير ساخط عليه»(٧٢).

د — كان من معايير اختيار شخصيات العمل انها ليست حالات فردية منعزلة «لم يوجد صالح قط لأنه يملأ المملكة المصرية. . اما أمين «الغني» فموجود من غير شك لأننا نراه ولا نكاد نرى غيره. فهو هذا الصبي الذي لاينام الليل جائعا إذا أقبل الليل. . ولا يطول انتظاره للغذاء إذا آن وقت الغداء»(٧٣).

هـ — حرص على توضيح دور «الضمير الجمعي» في إحداث التكامل الآلي

في مجتمع القرية من خلال التمسك بالقيم المشتركة. فلقد ثارت الأم على ابنتها «خديجة» خشية ان تكون قد سرقت شيئا من الطعام من مخدومها. كما رفضت «خديجة» الزواج من شاب موسر يكون في زواجها منه إنقاذا لأسرتها من الفقر والحاجة.

من العملين المذكورين «دعاء الكروان» و «المعذبون في الأرض» يمكن للقارىء أن يلمح ظلالا لفكر علم الاجتماع، وخاصة فكر «دور كايم». فالشخصيات ظواهر اجتماعية وليست فردية. ومصائرها محتومة فرضتها وحددتها موقفا وأفعالا، أوضاع المجتمع. فالفقر حتمي والانتقام للشرف حتمي، والتمسك بالقيم حتمي والقناعة بالتطور والإصلاح الاخلاقي والتحذير من الثورة لتحقيق التوازن بين المتعارضات.. الخ ضروري. وعلاوة على هذا لم ير «طه حسين» في الموت والانتحار إلا ظواهر طبيعية. إنها هي الرؤية نفسها التي نظر بها «دور كايم» الى الجريمة باعتبارها ظاهرة اجتماعية طبيعية بل ان بعض أنماطها له وظائفه الاجتماعية الايجابية.

بطبيعة الحال نحن أمام أعمال إبداعية. هي ليست تصويرا ميكانيكيا مباشرا للواقع الاجتاعي، وعلينا ألا نبحث فيها عن تطابق مباشر مع هذه الفكرة او تلك، مما مر عليه وتفاعل معه من أفكار. على ان الابداع رغم هذا يظل في بعض حدوده على الاقل تركيب مما هو مألوف وصولا الى ما هو غير مألوف. وان الاديب عندما اختار شخوصا بعينها وعلاقات بعينها ونهايات بعينها، من المؤكد انه كان أمام بدائل أخرى. وبالتالي أتى اختياره واعيا، وأهدافه محددة ولو بينه وبين نفسه. ان مقارنة العملين المذكورين بأخرى حول القرية المصرية يوضح ما نذهب اليه وتدلل عليه. لقد قاوم الفلاحون في رواية «الأرض» «لعبدالرحمن الشرقاوي» نجحوا في مقاومتهم حينا، واخفقوا أحيانا. في الوقت الذي بدت شخوص «طه حسين» مستسلمة لحتمية واقعها الاجتماعي. تهرب من الموقف تارة، وتصفح عن الجاني في أخرى. ولعل في مقارنة الشخصيات النسائية في عمله «دعاء الكروان» على سبيل المثال والذي أتت فيه المرأة ام محزونة بحاجة الى

زوجها رغم معرفتها بسلوكه المنحرف وخيانته، وخادمة في منازل أبناء الطبقة الوسطى في المدينة، وعرافة و «دلالة» وراقصة. لعل مقارنة هذا بشخصية «وصيفة» مثلا في الارض يكشف عن ابعاد الاختيارات هنا وهناك ودلالتها(٧٤). ان مقارنات اخرى مع «زينب» لـ «محمد حسين هيكل» و «الحرام» لـ «يوسف إدريس» توضح ان كلا منهم كان ابن فكره وممارساته وانتماءاتها والوظائف التي اعتقد ان ينجزها الأدب. وكان إبداع كلا منهم نتاجا لمنهجه ولو في خطوطه العامة. فبينما مال «طه حسين» الى المثالية الممزوجة بمقادير من الواقعية بدأ «محمد حسنين هيكل» رومانسيا، واتجه «عبدالرحمن الشرقاوي» و «يوسف إدريس» الى نمط من الواقعية المموجة بظلال مادية.

خاتمة:

في حدود ما سبق من استطلاع لعدد من أعمال «طه حسين»، وقراءة عدد من الدراسات التي أنجزت حول أعماله، توصلت دراستنا الى عدد من الاستخلاصات المحكومة بشروط الدراسات الاستطلاعية وجدواها.

الأول:

رغم ما طرأ على منهجه من تعديلات وتطورات فقد أبقى فيه على عدد من الأسس والقواعد التي بدت كالثوابت النسبية في منهجه. والتي تمحورت تقريبا: حول تحرير العقل، والقناعة بأسس العلم الوضعي، وأهمية التاريخ في المقارنة والفهم والتفسير. لقد كان الهدف الأكبر من وراء هذا هو الوصول الى مشروع مجتمعي قوامه العقلانية والليبرالية والاصلاح الاجتماعي الذي ينطلق من الإصلاح التعليمي والثقافي والأخلاقي.

١ — فعلى مستوى دور العقل في الإدراك، طالب بتحريره مما يعوقه عن أداء دوره الموضوعي في الإدراك والتحري والتحقق. ويتم هذا التحرير بالالتزام بشروط العلم الوضعي الذي قال بضرورة توفر شروط في الموضوعات المدروسة ترفعها الى مستوى الظاهرة الاجتماعية، ثم ملاحظتها في ضوء ما تحدثنا به من

أبعاد ومؤشرات عامة متفردة ومتميزة عما هو نفسي وعما هو طبيعي، وتحليلها وتفسيرها تفسيرا اجتماعيا.

٢ — وعلى مستوى التفسير تخير الحتمية الاجتماعية كإطار مستقل يؤثر في كافة التصورات والخصال والافعال الاجتماعية، الناتجة عما هو جمعي وعام ومطرد.

٣ — يعد الفهم التاريخي لنشأة الظواهر والمدركات وتطورها متمما بالمقارنة، للكشف عن خصائصها وقوانينها.

٤ — رغم إدراكه للتباين بين الحضارات والآتي من مقوماتها الذاتية التاريخية الثابتة نسبيا. فقد بين ما بين الحضارات والمجتمعات من تشابه بفعل وحدة العقل الإنساني وتطوره المشترك.

٥ — كان مع الاصلاح وضد الثورات بسبب مخاطرها الاجتماعية. وركز منطلقات هذا، في إصلاح التعليم ونشر التفكير العلمي بين الناس، وتطوير الثقافة وتوزيع الفرص الاجتماعية وتحقيق الديمقراطية.

الثاني :

رغم تأكيدنا أكثر من مرة بأنه من قبيل التجاوز للواقع ولمنطق البحث العلمي ان نبحث التكوين المنهجي والمعرفي لمفكر او مبدع ما في مصدر بعينه، فان استطلاعنا المحدد بما سبق من تحليلات هيأ لصياغة عدد من النتائج التي نراها صالحة لصوغ فرضيات لدراسات مقبلة، تختبرها لتدعيمها او تعدل فيها.

١ — فمن الثابت انه قرأ أعمال علم الاجتماع، ودرس هذا العلم وبحث فيه على يد نفر منهم. لقد درس «ابن خلدون» وبحث في اعماله. وقرأ «لأوجيست كونت» واستمع لشروح تلاميذه. . واستمع الى بعض محاضرات «دور كايم» وقرأ له تلاميذه، وتتلمذ على يديه في رسالته حول «ابن خلدون».

٢ — اكد في اكثر من عمل من اعمال متابعته وقناعته ببعض أفكار هؤلاء

الرواد. يدلل على هذا اقتباساته واحالاته في الحواشي في اعماله «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» وفي «الشعر الجاهلي» وفي « من بعيد» وفي «مستقبل الثقافة في مصر» وغيرها.

٣ — إذا كان «ديكارت» قد هيأ ذهنه لضرورة اعداد عقل الباحث لكي يدرك موضوعاته على نحو يقربه من الموضوعية. فقد أثرى «دور كايم» و «ابن خلدون» لديه فكرة المنهج وضرورته في العمل الذهني.. لقد تأثر في موقفه من التاريخ «بإبن خلدون»، وأسهم «دور كايم» على الاقل في قناعته بأهمية التفسير الاجتماعي، وحتمية دور الاطار الاجتماعي الاخلاقي في تحديد ادراك الناس وتصرفاتهم وخصالهم الاجتماعية.

٤ — في انتقائه لموضوعاته البحثية والابداعية، برز حرصه على ضرورة ان ترمز الى ظواهر ومجموعات، ولاتكون مجرد تعبير عما هو فردي. وفي هذا يبدو لنا تأثره بخصائص ما هو اجتماعي التي قرأها ودرسها على يد أستاذه «دور كايم».

٥ — ذهب كثير من شراح «طه حسين» وناقديه الى تأثره المنهجي «بديكارت» ويأتي اختلاف دراستنا معهم، من ان متابعة تطويره للمنهج وايضا ممارساته المنهجية، تظهر لنا انه أدخل تعديلات على الرؤيةالديكارتية أسهمت فيها قراءاته لأعمال دور كايم وبحثه لأعمال ابن خلدون فلم يكن شكه مطلقا مجردا كما هو الحال لدى «ديكارت» بل ارتدى أردية النسبية الزمانية والمكانية ولم يعد المنهج الديكارتي سوى احد جوانب منهجه العام كما اشارت دراسات محدودة عددا إلى هذا(٧٥).

الثالث :

يبين التحليل الاستطلاعي السابق ان منهج «طه حسين» بدأ حافلا بثنائيات ومتناقضات أفضت الى تجاورات في بعض الأفكار وتراوح وحيرة في اخرى. ففي الوقت الذي ظهر فيه متشددا وصارما فيما يتعلق باعداد العقل وتحريره، بدا

من أنصار الحتمية الاجتماعية التي تتجاوز النسبية وتعوق العقل أحيانا عن التجاوز والابداع، وتتعارض ورؤيته التاريخية بما تشتمل عليه من إدراك للثوابت والمتغيرات النسبية. واذا كان قد أتى ليبراليا على المستوى السياسي وإصلاحيا على المستوى الاجتماعي، فإن موقفه من المسألة الاجتماعية تراوح بين مد «مجانية التعليم»، وجذر يخال للمرء انه خنق الارادة الانسانية تحت وطأة تأثره بالفلسفة والعلم الاجتماعي الوضعيين اللذين تأثر وعن قناعته بهما، بالمدرسة الفرنسية في علم الاجتماع. انها الوضعية التي تعلى الآني على التاريخي. ونرى فيما هو قائم الانموذج الامثل. وتسعى على نحو مطلق الى تحقيق التوازن.

لقد أفضت هذه التموجات وهذا المد والجذر في فكره ومواقفه، الى تعدد وتعارض الاحكام التي صدرت بشأن تقويم موقفه العام. اعتبر فريق انتاجه كالمرايا المتجاورة التي لم تصل الى حد التلاحم والتفاعل والتركيب. وفريق ثان اعتبره من انصار الوسطية والتوفيق. ورأى فريق ثالث بأنه رائد تنوير وتحديث. ووصفه فريق رابع بأنه صاحب عقل عملي ذرائعي. ووصفه فريق خامس بأنه من المبشرين والميسرين للتبعية للحضارة الغربية(٧٧).

إن هذه الاوصاف رغم ما يلاحظ عليها من انتقائية وتجزيء لأعماله وممارساته. قد وضعته على انه كل شيء بدءا من كونه راديكاليا الى كونه محافظا. ولعل ما يلفت النظر ان بعض دارسي أستاذه «دور كايم» قد أطلقوا على هذا الاستاذ الاوصاف السابقة تقريبا حيث استخلصوا من اعماله عدة زوايا جعلته هو الآخر كل شيء. بدءا من كونه ماديا الى كونه صوفيا(٧٨).

وبعد اتصور ان الاستطلاع السابق قد تمكن على الاقل من توضيح ان المرايا المتجاورة لدى «طه حسين» عكست اشخاصا وأفكارا مرت عليها. أسهمت في تجاور ما عكسته هذه المرايا.. وكان بعض مما عكست أفكارا لعدد من رواد علم الاجتماع أتى بعضها باهت وبعضها الآخر اكثر وضوحا ولمعانا.

المصـادر والحواشـــي :

١ — فردريك معتوق، تطور علم اجتماع المعرفة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢، ص ص ١٥٦ ـ ١٥٨ .
٢ — من هذه الدراسات على سبيل المثال :
— جابر عصفور، المرايا المتجاورة ـ دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣ .
— أحمد علبي، طه حسين ـ رجل وفكر وعصر، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥ .
— كتاب فكر، طه حسين، مائة عام من النهوض العربي، عدد ١٤، القاهرة، ١٩٨٩ .
٣ — Nisbet, R, The Sociological Tradition, Heinmann, London, 1966, pp VII - VIII.
وانظر أيضا : Zeitlin, I., Ideology and the Development of Socialogical Theory, Prentic Hall If India, New Delhi, 1969.
٤ — يوسف سليم سلامة «ديكارت وطه حسين ملاحظات تمهيدية حول مشكلة المنهج عند طه حسين»، في طه حسين ـ العقلانية، الديموقراطية والحداثة، قضايا وشهادات، كتاب ثقافي دوري، عدد ١ مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، دمشق، بدون تاريخ، ص ص ٦٩ ـ ١١١ .
٥ — أحمد برقاوي، «طه حسين والعقلانية» منشور في المصدر السابق، ص ص ١٥١ ـ ١٧٦ خاصة ص ١٥٦ .
٦ — يوسف سليم سلامة، مصدر مذكور، ص ص ٩١ ـ ٩٣ .
٧ — من هذه الأعمال المصادر المذكورة لكل من : جابر عصفور — يوسف سليم سلامة، أحمد برقاوي ـ أحمد علبي . بالاضافة إلى :
— شكري ماضي «الفكر الادبي في والمنهاج النقدي» كتاب فكر، مصدر مذكور، ص ص ١٩١ ـ ٢٠٨ .
— مجاهد عبدالمنعم مجاهد «مفهوم التأريخ»، المصدر السابق ص ص ٨٩ ـ ١٠١ .
٨ — إيميل دور كايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة د. محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١ ص ص ٧٠ ـ ٧٤ .
٩ — Thompson, K; Emile Durkheim, Ellis Horwood, London, 1982, p. 169.
١٠ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة محمد عبدالله عنان، المجموعة الكاملة، المجلد الثامن، علم الاجتماع، بيروت ١٩٧٥، ص ٧٦ .
١١ — يوسف سليم سلامة، مصدر مذكور، ص ص ٩٢ ـ ٩٣ .
١٢ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، مصدر مذكور، ص : ٣٧، ٥٤، ٦٠، ٦٥ على سبيل المثال .
١٣ — جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ص ٧٠ ـ ٧٤ .
١٤ — طه حسين، فلسفة بان خلدون، مصدر مذكور، ص ١٦ .
١٥ — المصدر السابق، ص ٤٤ .
وأيضا عبدالرازق عيد «طه حسين ومنطق العقلانية» في طه حسين : العقلانية والديموقراطية والحداثة، مصدر مذكور، ص ص ١١٢ ـ ١٤٨ ، خاصة ص ص ١١٨ ـ ١١٩ .
١٦ — Aron, R, ; Main Currents in Sociological Though, 2. ; Penguin Books. 1970, pp 104 - 105.
١٧ — Swingwood A short History of Sociological Though, Macmillan, 1984, pp 98 - 99.
وأيضا : Aron, R. ; Op. cit., p. 19.
١٨ — Ibid. , p. 16.
١٩ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون، مصدر مذكور، ص ص ٦٢ ـ ٦٣ .
٢٠ — لقد كان «دور كايم» احد مشرفين على «طه حسين» في رسالته حول ابن خلدون وبعد انتهائه منها وقبل مناقشتها، وافته المنية «دور كايم» فحل محله احد تلامذته وهو سلسلتان بوجلية S. Bougle الذي اعتمد «طه حسين» في مصادره العلميةب لرسالته على كتابه ما هو علم الاجتماع . كما كانت تقاليد الجامعة تتطلب ان يجري طالب الدكتوراه قبل مناقشة رسالته إمتحانا في موضوعين كان احدهما علم الاجتماع كما يتصوره «أوجيست كونت» . انظر : احمد علبي، مصدر مذكور، ص ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨ .
٢١ — نقلا عن جابر عصفور، ص ٢٢٢ .
٢٢ — مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه ـ الكتاب الأول : تاريخ التفكير الاجتماعي وتطوره، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤ .

٢٣ — جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ٢١٥.
٢٤ — المصدر السابق، ص ٢١٦.
٢٥ — السابق، الموضع نفسه.
٢٦ — نقلا عن أحمد برقاوي، مصدر مذكور، ص ١٠.
٢٧ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، مصدر مذكور، ص ١٦.
٢٨ — عبدالرازق عيد، مصدر مذكور، ص ص ١١٨ ـ ١١٩.
٢٩ — جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ٢١٧.
٣٠ — عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس، المقدمة الخامسة من الجزء الاول وعنوانها «في اختلاف احوال العمران في الخضب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم.».
٣١ — جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ٢٣٤.
٣٢ — Aron, R., op. cit., p. 107.
٣٣ — يوسف سليم سلامة، مصدر مذكور، ص ٩٣.
٣٤ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص ٩٣.
٣٥ — يوسف سليم سلامة، واحمد برقاوي، السابق الإشارة اليهما على سبيل المثال.
٣٦ — محمد البهي «تقديم» لكتاب: محمود زقزوق، المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، دار القلم، الكويت، ١٩٨٣، ص ص ٧ ـ ١٥ وأيضا ص ٥.
٣٧ — نقلا عن نص في كتابه من بعيد ١٩٣٥، نشر في كتاب، طه حسين: العقلانية والديموقراطية والحداثة، مصدر مذكور، ص ص ٢٣ ـ ٢٤.
٣٨ — محمد جمال باروت «طه حسين والمؤسسة الأزهرية» منشور في المصدر السابق، ص ص ٣٧٢ ـ ٣٨٨، خاصة ص ٣٧٤.
٣٩ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، الاعمال الكاملة، المجلد التاسع، علم التربية، دار الكاتب اللبناني بيروت ١٩٨٢، ص ٢٧٠.
٤٠ — المصدر السابق، ص ٩٣.
٤١ — المصدر السابق، ص ٩٢.
٤٢ — أحمد زكريا الشلق، «طه حسين وقضية التغريب»، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد ١١، ١٩٨٨، ص ص ٢٧٧ ـ ٢٩٩، خاصة ص ص ٢٩٢ — ٢٩٣.

٤٣ — انظر مناقشة هذه النقطة في: Aron, R, مصدر مذكور، ص ص ١٢ ـ ١٣. ب
٤٤ — Idid, Lcc. cit.,
وأيضا: Swinge Wood, op cit, pp. 107 - 108.
٤٥ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مصدر مذكور، ص ٥٨.
٤٦ — طه حسين، العقلانية والديموقراطية والحداثة، مصدر مذكور، ص ١٨٠.
٤٧ — طه حسين، مستقبل الثقافة، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.
٤٨ — المصدر الصابق، ص ٧٧ — ٧٨.
٤٩ — علي ليلة، النظرية الاجتماعية ونشأة النظام الرأسمالي ـ حول الانساق الكلاسيكية. الشركة الفنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨، ص ٢١٣.
٥٠ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر. مواضع متفرقة، خاصة ص ص ١٠٢ ـ ١٠٣ وأيضا أحمد علي، مصدر مذكور، ص ص ٤٨٢ ـ ٤٨٧.
٥١ — طه حسين، مستقبل الثقافة، مصدر مذكور، ص ص ١٠٢ ـ ١٠٤.
٥٢ — علي ليلة، مصدر مذكور، ص ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧.
٥٣ — I Aron, R, op cit, pp, 88 - 89.
٥٤ — Nisbet, R, op cit, Introduction.
٥٥ — أحمد علبي، مصدر مذكور، ص ٤٨٥.
٥٦ — انظر: مصطفى صادق الرافعي: «الدفاع عن الايمان» في «طه حسين» العقلانية والديموقراطية، مصدر مذكور، خاصة المقدمة.
٥٨ — جابر الانصاري، تحولات الفكر والسياسة في المشرق العربي، عالم المعرفة، الكويت، رقم ٣٥، ١٩٨٠.
٥٩ — طه حسين «دور الكاتب في المجتمع المعاصر» دراسة منشورة في كتاب: الشاطىء الآخر ـ طه حسين في جديده

الذي لم ينشر سابقا، كتابات طه حسين بالفرنسية. جمعها وترجمها وعلق عليها عبدالرشيد الصادق محمودي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ص ص ١٠٣ ـ ١٢٨. ويهمنا هنا أن نشير انه قد نشرت ترجمة لهذه الدراسة قبل ذلك قام بها فؤاد دواره، ونشرت بمجلة عالم الفكر، عدد ٣ مجلد ١١، اكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨٠، انظر حول هذا جابر عصفور، مصدر مذكور، ص ٥٩.

٦٠ — المصدر السابق، ص ص ١١٥ ـ ١١٩.

٦١ — طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مصدر مذكور، ص ١٧١.

٦٢ — المصدر السابق، ص ١٥٨.

٦٣ — المصدر السابق، ص ٢٠٧.

٦٤ — طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، مصدر مذكور، ص ص ١٥٩ ـ ١٦٣.
وانظر أيضا : الصغير ابن عمار، الفكر العلمي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ص ١١١ ـ ١٢٤.

٦٥ — انظر ثبتا وتحليلا لهذه الاعمال في Thompson, K, op cit., 168 2 169.
وأيضا : Aron, R, op cit, 94 - 97.

٦٦ — علي ليلة، البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والانثروبولوجيا، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٢، ص ص ٨٠ ـ ٨٣.

٦٧ — طه حسين، دعاء الكروان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٦، ص ص ١٢٩ ـ ١٣١.

٦٨ — قارن هذا بأفكار دور كايم حول الموضوع نفسه في : علي ليلة، البنائية الوظيفية، مصدر مذكور، ص ٨٥.

٦٩ — طه حسين، دعاء الكروان، مصدر مذكور، ص ١٦٨، ص ١٧٢.

٧٠ — Thompson, K, op 111 - 114.

٧١ — طه حسين، المعذبون في الارض، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة. ص ١٥٠.

٧٢ — المصدر السابق، ص ص ٨٢ ـ ٨٣.

٧٣ — المصدر السابق، ص ص ٢٤ ـ ٢٥.

٧٤ — طه حسين، دعاء الكروان، المصدر المذكور، صفحات متفرقة ٣٢، ٣٥، ٤٢، ٤٨، ١٧٤.

٧٥ — أحمد زكريا الشلق، مصدر مذكور، ص ٢٨٦.

٧٦ — السيد البحراوي «قراءة في الشعر الجاهلي» منشور في طه حسين : العقلانية والديموقراطية والحداثة، مصدر مذكور، ص ص ٣٤١ ـ ٣٧١.

٧٧ — علي ليلة، النظرية الاجتماعية ونشأة النظام الرأسمالي، مصدر مذكور، ص ٢٠٧.